# مقدمـــة

ليس هناك تعبير أكثر تداولاً الآن، بين الكتّاب والمعلقين على ما يجرى فى العالم، من تعبير (العولمة) ، أو (الكونية) ، وما يتصل بهما من إشارات متكررة إلى (المتغيرات الدولية)، أو (العالم المتغير) ، وما شابه ذلك من تعبيرات تحمل كلها معنى معينا ، وهو أن العالم الآن يمرّ بمرحلة مختلفة جذريا عما كان، مما يتطلب منا سلوكا مختلفا اختلافا جذريا أيضا، وإلا كنا جامدين متزمتين متحجرين ، ولا بد أن يجرفنا تيار (العولمة) فى النهاية.

انظر كم عدد المؤتمرات والندوات والمحاضرات التى تحمل فى عناوينها كلمة (العولمة) أو تعبير (فى عالم متغير)، مثل (العرب والعولمة)، أو (العولمة والهوية)، أو (العرب فى عالم متغير)، أو (مصر والمتغيرات الدولية).. إلخ.

وقد ارتبط شيوع هذا المعنى والتأكيد عليه ظهور أفكار ونظريات جديدة تقوم على نفس الفكرة ، وتحاول تقديم تفسير لها أو تؤكد على جانب معين منها . من ذلك بالطبع فكرة الكاتب الأمريكى ، اليابانى الأصل ، فوكوياما، التى عرفت باسم (نهاية التاريخ) والتى يزعم بها أننا وصلنا إلى نقطة حاسمة فى التاريخ البشرى تتحدد بانتصار النظام الليبرالى والديمقراطية من النمط الغربى على سائر النظم المنافسة لهما، وأن العالم قد أدرك بعد فترة حماقة طويلة أن الرأسمالية هى أفضل أنواع التنظيمات الاقتصادية، وأن الليبرالية الغربية هى أسلوب الحياة الوحيد الصالح

للبشرية. وينتمي إلى نفس النوع من الأفكار القول بأننا نمر الآن بعصر انتهاء الأيديولوجيات، وأن الاعتبار الوحيد الجدير بالاهتمام هو اعتبار المصلحة الاقتصادية، والقول بأننا نمر بعصر زوال القوميات، ومن بينها القومية العربية، وأن علينا أن ندرك أن الظروف لم تعد تسمح بالتمسك بأفكار بالية من نوع (رفض التبعية) أو بحركات من نوع (مناهضة الاستعمار) إذ إننا قد دخلنا الآن عصر العولمة. حيث أصبح العالم (قرية كبيرة واحدة).

ولي على هذه الموجة الجديدة من الأفكار بعض ملاحظات:

**الملاحظة الأولى:** أن استخدام تعبير العولمة وأشباهه، قد زاد بوجه خاص بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وتفكك الكتلة الاشتراكية، وتحول دولها إلى اقتصاديات السوق والحرية الاقتصادية، وأن المصدر الأساسي للترويج لهذه الموجة الجديدة من الأفكار هو ذلك الجزء المنتصر من العالم، أما ذلك الجزء من العالم الذي انهزم وسقط (وهو العالم الشيوعي) أو ذلك الجزء من العالم الواقف يتفرج (العالم الثالث)، فالأمر بالنسبة لهما ليس بهذا الوضوح. ففي العالم الشيوعي الذي انهار وسقط سرعان ما ظهر أن سحر النظام الليبرالي وحرية السوق هو محل شك كبير، وسرعان ما ظهر من يدعو إلى إعادة كل شيء إلى ما كان عليه قبل سقوط الاشتراكية، أو من يدعو على الأقل إلى التريث في الاندفاع نحو نظام السوق، وإلى محاولة ابتداع شيء جديد يتجنب مثالب هذا النظام وذاك. ظهر ذلك في الاتحاد السوفييتي نفسه، وبدرجات مختلفة في سائر دول أوروبا الشرقية وعلى الأخص بولندا، كما بدأت تظهر بوادره في الصين أيضا حيث بدأ

الصينيون يلاحظون أن الانفتاح بلا ضابط على العالم ومسايرة هذا (العالم المتغير) والتكيف معه، اقترن بمثالب كثيرة منها انتشار الرشوة، ومختلف صور الفساد وتدهور نظام التعليم، وتحول القرى والمدن الصغيرة الجميلة، إلى شوارع تحفها البوتيكات القبيحة من الجانبين، وانشغال الناس أكثر فأكثر بصفقات لا تهدف إلا إلى الربح، بما فى ذلك المدرسون الذين يتاجرون الآن ببيع الحلوى للتلاميذ فى الفصول، والضباط الذين يستخدمون سيارات الجيش فى نقل بضاعتهم الخاصة، وكمساريو القطارات الذين يؤجرون عربات القطار لحسابهم الخاص، والمعابد التى تتحول إلى مدن ملاه تجارية .. إلخ.

وفى بقية العالم الثالث ليس هناك دليل قاطع على أن مسايرة العالم المتغير والانصياع لمتطلبات (العولمة) على النحو الذى تشير به نصائح صندوق النقد والبنك الدولى كانت دائمًا عاملاً مساعدا على إحداث نهضة اقتصادية أو اجتماعية ، ناهيك عن تحقيق تحسن فى أحوال الفقراء، بل الأرجح أن العكس هو الصحيح.

هذا التأكيد على أهمية ما يحدث فى العالم من تغيرات وعلى ضرورة مسايرة هذه التغيرات وضرورة التخلص من القديم إنما ينبع أساسا من جانب الطرف المنتصر، وهذا من شأنه أن يلفت نظرنا إلى الاحتمال الآتى:

وهو أن انتشار هذه الفكرة قد لا يكون سببه أنها صحيحة وإنما مجرد ما يتمتع به صاحبها من نفوذ . فمن الطبيعى أن يظن المنتصر أن انتصاره يدشن عهدا جديدا مختلفا اختلافا جذريا وأفضل بكثير مما كان سائدا

فى الماضى، وأن يروج لهذه الفكرة ويشيد بالقائلين بها. إن الدعاية التى أعطيت مثلا لكتاب (فوكوياما) والضجة التى أثارتها حوله وسائل الإعلام فى الغرب، والاحتفال به وإسناد منصب كبير له فى وزارة الخارجية الأمريكية، كفيل بأن يزيد من شكنا فى أن الأمر كله قد لا يزيد كثيرا عن احتفال المنتصر بانتصاره، ورغبته فى الترويج لأية فكرة تتضمن فى ثناياها الإشادة به مهما كانت درجة ضحالتها، بما فى ذلك فكرة (العولمة).

الملاحظة الثانية : هى أن هذه السنوات التى عشناها منذ انتهاء الحرب الباردة، ليست هى أول فترة نصادف فيها الترويج لمثل هذه الأفكار، والتغنى بعصر جديد ينهى حماقات الماضى، ودعوة الناس إلى التكيف والتواؤم مع مقتضيات هذا العصر الجديد. فهذا الكلام سمعناه من قبل فى أعقاب الحربين العالميتين الأولى والثانية. لا يسع المرء مثلا إلا أن يلاحظ ما روج له فى أعقاب الحرب العالمية الأولى من كلام عن حق الشعوب جميعا فى تقرير مصيرها، ودخول الإنسانية عصرا جديدا يسوده العدل والسلام، ودعوة الرئيس الأمريكى ويلسون فى ١٩١٨، فى مبادئه الأربعة عشر، إلى تدشين عصر جديد يحل محل عصر الفتوحات والتوسعات الذى مضى وانقضى، ويتسم باحترام حقوق كافة الشعوب لا فرق بين قويها وضعيفها، مما يذكر بشدة بتصريحات الرئيس بوش بعد انتهاء الحرب الباردة فى ١٩٩٠ عن سيادة الشرعية الدولية واحترام حقوق الإنسان فى كل مكان.

حدث شىء مماثل أيضا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية من الترويج لعصر جديد دشنه إعلان حقوق الإنسان من ناحية والحديث عن انتصار

مبادئ العالم الحر بعد انحسار النازية والفاشية من ناحية أخرى، وذلك قبل سنوات قليلة من بداية عصر المكارثية في الولايات المتحدة حيث كانت السلطات تعاقب الناس على ما قد يكون قد مر بخاطرهم من أفكار يشتبه في وجود صلة بينها، من قريب أو بعيد، بالشيوعية.

قد لا يكون كل هذا الكلام المعسول إذن ، الذى نسمعه الآن، مما يبشر بعالم جديد تنتصر فيه الليبرالية وتحترم فيه الشرعية وحقوق الإنسان، إنه نفس الكلام المألوف بعد كل حرب عالمية، خاصة إذا أدركنا أن من المعقول جدًا أن نعتبر انتهاء الحرب الباردة الأخيرة بمثابة نهاية لحرب عالمية ثالثة أرغمت فيها الكتلة الاشتراكية على التسليم دون قتال.

الملاحظة الثالثة : لا تخلو من طرافة. ذلك أن الملاحظ أن كل من يحلو لهم الآن التأكيد بشدة على (المتغيرات العالمية) والحريصين دون ملل على لفت نظرنا إلى كل ما هو جديد فيما يحدث في العالم، ولا يكفون عن دعوتنا إلى التأقلم والتغير بما يناسب ظروف العصر،ويصفون من يرفض ذلك بالتحجر والتزمت وانغلاق الفكر وعدم الواقعية وقلة المرونة إلخ، هؤلاء جميعا، أو الجزء الأكبر منهم، ينتمون إلى ما يمكن تسميته (باليمين)، بينما ينتمى أولئك (المتحجرون المتزمتون المنغلقون) إلى صفوف (اليسار). والطرافة تظهر فى أن الأمر كان معكوسا تماما حتى وقت قريب جدا، فاليسار هو الذى كان مغرما بالكلام عن الجديد وضرورة التغيير ، بينما اليمين المحافظ هو الذى كان يميل إلى التمسك بالقديم والاحتفاظ بكل شيء على ما هو عليه . اليسار هو الذى كان يتهم الآخرين بالتحجر والجمود ويدعو إلى قلب الأشياء رأسا على عقب،

أما الآن فاليمين هو الذى يقوم بهذه المهمة ، وهو الذى يلعب الآن دور الرجل العصرى المتمدن الفاهم لكل ما تتطلبه ظروف العصر.

دعنا لا ننسى مثلاً أن أقوى عناصر اليسار كانت هى التى تفخر بتسلحها بالفلسفة الجدلية، التى تؤكد على مبدأ التطور والتغير، والتى تنعى على أعدائها تمسكها بالفكر الميتافيزيقى الثابت، والذى ينكر التغيير ويؤكد على الثبات.

ما سر هذا الانقلاب من الشىء إلى نقيضه؟

لعل السر هو فى أن كلا من الفريقين يؤكد على ضرورة التغير أو الثبات على حسب هواه، فإذا صادف الجديد هواه صاح قائلا : (لاداعى للجمود والتحجر) ، وإذا كان الجديد ضد مصلحته صاح غاضبا : ( احذروا ممن يدعوكم إلى التنازل عن مقدساتكم وأغلى شىء لديكم، سواء كانت هذه المقدسات عقيدة دينية أو قومية عربية أو استقلالا وطنيا ).

إذا كان هذا التحليل صحيحا ، فليس هناك أى داع لأن يتشدق الداعون إلى التخلى عن ارتباطاتنا القومية. وإلى التعاون الاقتصادى مع إسرائيل، وإلى التخلى عن القطاع العام وعرضه للبيع، وإلى التخلى عن نظام التخطيط وترك النمو الاقتصادى لقوى السوق ، وإلى التخلى عن الدعوة إلى العدالة فى توزيع الدخل وترك القوى والضعيف ليتنافسا دون تدخل من أحد، لا داعى لأن يتشدق كل هؤلاء بأنهم (منفتحون على العالم، متكيفون مع التغيرات الدولية، مرنون واقعيون)، وكأن التغير مع المتغيرات هو دائما افضل من الثبات فى نفس المكان، وكأن المرونة دائما أفضل من التصلب. فالأمر فى نهاية الأمر يتوقف على طبيعة هذا

الجديد، وما هو هذا التغير الذى ندعى إليه ، فقد يكون التحجر والتزمت والتشبث بالقديم فى كثير من الظروف هو الأنفع والأصح، وقد يكون افضل مائة مرة مما يدعوننا إليه.

□□□

فى الفصول الآتية أحاول أن أبين كم فى هذه الأشياء (الجديدة) من مساوئ، وكم فيها يسمى (بالتحجّر أو الثبات) من مزايا.

نعم هناك أشياء كثيرة جديدة تحدث (وإن كان لمعظمها سوابق قديمة ومهمة)، وهى تحدث بمعدلات مذهلة بتسارعها. ولكن ليس صحيحا أن من المرغوب فيه دائما (التكيّف) مع هذه المتغيرات، بل قد يكون من الأنبل والأسلم للبشرية محاولة وقفها، أو على الأقل التقليل من سرعتها. والأهم من ذلك أن نحاول أن نجعل هذه المتغيرات تتكيف هى مع الإنسان وأن نحاول تطويعها لحاجات الإنسان الأساسية، البيولوجية والنفسية، بدلا من أن نحاول تطويع الإنسان لها، ولو كان ثمن ذلك التخلى عن إنسانيته.

فى الفصول الآتية أحاول أن أشرح حقيقة العولمة وبعض مخاطرها، بما تتضمنه من تهديد لسعادة الإنسان ورفاهيته وشعوره بالاستقرار والطمأنينة وتهديد لشعوره بالرضا عن نفسه المستمد من احترام هويته وتفرده. هذه المخاطر التى تأتى مما يسمى بثورة المعلومات، ومن اكتساح قيم المجتمع الاستهلاكى، ومن انتشار ما يمكن تسميته بحضارة السوق ، أى تحويل كل شىء إلى سلعة ، كلها من مظاهر العولمة، إذ أن العولمة فى نهاية الأمر هى اكتساح أشياء معينه للعالم بأسره، وهذه الأشياء تشمل ،

ليس فقط سلعًا وخدمات بل تشمل أيضا المعلومات، وقيم المجتمع الاستهلاكى، وقيم حضارة السوق.

قد يجد بعض القراء فى هذا الكتاب تأكيدًا زائدًا عن الحد على الجوانب السلبية للعولمة، ولكننا نعيش فى عصر يتغنى أكثر الناس بمزاياها، فلا بأس من أن يؤكد البعض على جوانبها الأقل حسنا.

**جلال أمين**

obeikandl.com